

الحرب على حزب الله أسقطت دعائم دولة إسرائيل وكشفت عورتها

عبد الكريم الزبيدي

الكلمات المفتاحية: حزب الله؛ المقاومة؛ إسرائيل؛ الولايات المتحدة الأميركية؛ أوروبا؛ التلازم الأميركي-الإسرائيلي.

قامت دولة إسرائيل في فلسطين المحتلة على أربع دعائم:

1 - الدعم والإسناد الأمريكي والأوروبي: وقد تمثل في الدعم العسكري بالأسلحة، وتكنولوجيا الأسلحة، والخبراء العسكريين. وأيضًا الدعم الاستخباراتي والامني والمعلوماتي الذي توفره تكنولوجيا الأقمار الصناعية، والعملاء المباشرون وغير المباشرين، بما يخدم إسرائيل في الحفاظ على كيانها، ومحاربة خصومها وإفشال مخططاتهم. وأيضًا الدعم الاقتصادي والمالي الذي تقدمه أمريكا وأوروبا بسخاء لها. وأيضًا الدعم المعنوي، بما في ذلك الوقوف إلى جانبها في مجلس الأمن والمحافل الدولية، ومنع إصدار أي قرار يدينها، وتخويف وإرهاب أي جهة أو شخصية تحاول إدانة ممارساتها غير الإنسانية، عن طريق اتهامها بـ "معاداة السامية"، وأيضًا الدعم الإعلامي، بما في ذلك تسخير كل أجهزة الإعلام التي تدعم كيانها لتحقيق أمرين: الأول: حشد الشعوب الأوروبية والأمريكية وبقية شعوب العالم للتعاطف مع الدولة الإسرائيلية والوقوف إلى جانبها؛ والثاني: ترسيخ الإحباط والفشل والخوّر والشعور بالعجز في مواجهة إسرائيل في نفوس الشعوب العربية والإسلامية.

2 - الرعب الذي أوجده الكيان الإسرائيلي في نفوس العرب والمسلمين عن طريق القوة العسكرية المعظمة التي يمتلكها هذا الكيان: فقد استطاع هذا الكيان أن يبطش بخصومه العرب بطشاً شديداً في عدة حروب خاضها معهم، كان أولها حرب عام 1948 ميلادي، وكان منها حرب عام 1967 ميلادي، وحرب عام 1973 ميلادي، إلى الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982 ميلادي. لقد كان هذا الكيان يستعمل ما يسمّى "ضربة الرعب" في حروبه مع العرب، ويعني ذلك الاستعمال المفرط للأسلحة، وتوجيه أفسى ما يمكن توجيهه من الضربات الشديدة بأحدث الأسلحة وأشدّها فتكاً، بما في ذلك الأسلحة التي حرّمها المجتمع الدولي. ويمكن أن يسهم السلاح النووي الذي امتلكه هذا الكيان في إيجاد ذلك الرعب، وإن لم يستعمله في الحروب التي خاضها مع العرب إلى حدّ الآن.

لقد كان هذا الرعب الذي أوجده الكيان الإسرائيلي في نفوس العرب والمسلمين سبباً منيعاً يحيط بهذه الدولة الغربية في الجسد العربي، ويحميها من كلّ العرب، سواء كانوا مجاورين لها أو بعيدين عنها. وكان هذا

الرب عاملاً حاسماً في كل الانتصارات التي حققتها هذا الكيان على أعدائه العرب في كل الحروب التي خاضها معهم، فقد كان الرب يسير بين يدي الجيش الإسرائيلي أينما حلّ، بل كان يتقدّم عليه مسافات بعيدة، فما يكاد نبأ تحرك الجيش الإسرائيلي يصل إلى بلد ما حتى تنخلع، لهول الرب الذي يسير بين يديه، قلوب حكام ذلك البلد الذين يعكسون بدورهم هذا الرب في نفوس شعوبهم. وبسبب هذا الرب وُلدت مقولة "الجيش الإسرائيلي هو الجيش الذي لا يُقهر"، ومقولة "لا قبل لنا بجيش إسرائيل"، ثم تحوّلت هاتان المقولتان إلى حقيقة في العمل العربي على كل الأصعدة والاتجاهات.

وكان من نتائج هذا الرب الموقف الرسمي العربي الخائف دائماً إزاء كل ما تفعله إسرائيل. وهذا يتبيّن جلياً في صمت الحكومات العربيّة ممّا يفعله الكيان الإسرائيلي بالفلسطينيين من جرائم فظيعة، وكذلك ما فعله هذا الكيان وما يفعله في حروبه ضدّ العرب عموماً واللبنانيين خصوصاً. إنّ أفضل عبارة يمكن أن تصف صمت الموقف العربي الرسميّ بأنه "صمت الخائف الذي يقف أمام عملاق متجبر وسلطان متغطرس، مع غضّ بصره وطأطأة رأسه". فلا يستغرب أهل فلسطين ولبنان من هذا الصمت العربي الرسميّ إزاء ما يحدث لهم من قبل الكيان الإسرائيليّ لأنّه صمت ناتج عن الرب الذي زرعه هذا الكيان في نفوس الحكام العرب وشعوبهم.

3 – التلازم الأمريكيّ الإسرائيليّ وتقاسم الأدوار في التعامل مع العرب: من الواضح لكلّ باحث وجود

تلازم أمريكيّ إسرائيليّ في المواقف من منطقة الشرق الأوسط عموماً ومن العرب خصوصاً، وأيضاً وجود تقاسم للأدوار في التعامل مع العرب. ويمكن أن يوصف هذا التلازم والتقاسم للأدوار بأنه تلازم وتقاسم مصلحيّ، أي: لتحقيق المصالح المطلوبة من قبل كلّ منهما.

إنّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة تسعى لإقامة إمبراطوريّة عالميّة تحيي بها إمبراطوريّة روما التي سقطت منذ زمن بعيد، وظنّ الناس أنّها ماتت ولا رجعة لها، وأنّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة تدرك أنّه لا يتحقّق لها هذا الأمر إلّا بالسيطرة على منطقة الشرق الأوسط وإخضاعها لنفوذها المباشر. وتدرك أيضاً أنّه لا يتحقّق لها السيطرة على منطقة الشرق الأوسط إلّا بالقضاء على وجود المقاومة فيها، وتنظيف المنطقة من أيّ وجود لهذه المقاومة. كما تدرك أنّ القضاء على وجود المقاومة في المنطقة لا يتحقّق إلّا بالقضاء على حزب الله في لبنان وعلى حركات المقاومة الفلسطينيّة، وهما آخر ما تبقى من المقاومة في المنطقة. وأنّه لأجل القضاء على هاتين الجهتين من المقاومة فلا بدّ من إخضاع الجهات التي تدعم حزب الله وحركات المقاومة الفلسطينيّة، والجهات

التي تدعم حزب الله وحركات المقاومة الفلسطينية تتجسّد الآن في سوريا وإيران، وتدرك أيضًا أنّ مفتاح إخضاع سوريا وإيران، أو على الأقلّ تحجيم دورهما في دعم حزب الله وحركات المقاومة الفلسطينية، هو احتلال العراق وتمركز القوّات الأمريكيّة الضاربة المدجّجة بالأسلحة ذات الدمار الشامل في أراضيه المجاورة لكلّ من سوريا والعراق.

أمّا الكيان الإسرائيليّ، فإنّه يسعى إلى الحفاظ على هذا الكيان الذي أقامه في فلسطين، واستطاع أن يوسّعه في عدّة حروب خاضها مع العرب، ليضمّ إليه أجزاء من الضفّة الغربيّة بما فيها القدس، وأجزاء من الأرض السوريّة والأرض اللبنانيّة، وتوسّع جنوبًا ليقوم له وجودًا في المستوطنات التي أقامها في جنوب فلسطين وأجزاء من سيناء. ويسعى هذا الكيان أيضًا إلى توسيع رقعته على حساب جيرانه العرب، ليحقّق مقولة: "أرض إسرائيل من الفرات إلى النيل"، حين تسنح له الفرصة لتحقيق ذلك.

ويدرك هذا الكيان أنّه لا يتحقّق له هذا الأمر إلّا بالقضاء على المقاومة الفلسطينية في فلسطين، وعلى المقاومة المتمركزة على حدوده الشماليّة المتمثّلة في حزب الله، ويدرك أيضًا أنّه لا يتحقّق له ذلك إلّا بإخضاع سوريا وإيران اللتين تدعمان هذه المقاومة، أو بتحجيم دورهما في دعم المقاومة.

ومن هنا، نشأ ذلك التلازم الأمريكيّ الإسرائيليّ في الأدوار والمواقف لتحقيق المصالح المشتركة على النحو التالي:

إسرائيل تمارس الرعب الذي صنّعه لنفسها في المنطقة العربيّة على الحكومات العربيّة. وأمريكا تضمن لهذه الحكومات حمايتها من إسرائيل، وتتعهّد لها بأن لا تقوم إسرائيل بأيّ هجوم عليها يؤدّي إلى إسقاطها، مقابل أن ترعى تلك الحكومات العربيّة المصالح الأمريكيّة في المنطقة العربيّة، وتحافظ عليها.

أمريكا تحمي إسرائيل في الأمم المتّحدة وفي مجلس الأمن وفي كلّ المحافل الدوليّة، وهي أيضًا تحمي إسرائيل بالقوّة العسكريّة الأمريكيّة ضدّ أيّ هجوم مسلّح قد يقع عليها. كما تقوم إسرائيل باستدامة الرعب على الحكومات العربيّة لضمان استمرار بقاء المصالح الأمريكيّة في المنطقة العربيّة الغنيّة.

تأتي أمريكا بجيوشها المدجّجة بالأسلحة المتطوّرة والأسلحة الدمار الشامل إلى المنطقة العربيّة للسيطرة على منطقة الشرق الأوسط، وإخضاعها لنفوذها المباشر، تمهيدًا لإقامة الإمبراطوريّة الأمريكيّة.

وقد قامت أمريكا بهذا الأمر في مرحلتين زمنيّتين، الأولى: كانت عام 1991 ميلاديّ، بحجّة تحرير الكويت، بعد أن قام صدام حسين، رئيس النظام العراقيّ حينئذ، باحتلال الكويت؛ والثانية: كانت عام 2003 ميلاديّ، بحجّة إسقاط نظام صدام حسين الذي أصبح يهدّد الأمن القوميّ الأمريكيّ، لامتلاكه أسلحة الدمار الشامل، كما أشاعت أمريكا وروّجت له.

وبعد أن صار لأمريكا وجود عسكريّ مباشر في المنطقة العربيّة أمسكت بأعناق الحكومات العربيّة وشعوبها، وصارت تضغط علي أعناقهم لخنقها كلما ارتفع صوت منها ضدّ إسرائيل، وترفع الضغط عنها لالتقاط الأنفاس كلما استكانت تلك الحكومات والشعوب ورضيت بأمرها الواقع. مقابل ذلك تقوم إسرائيل بالقضاء على حركات المقاومة الفلسطينية، وعلى حزب الله في لبنان، بعد أن ضمنت إمساك الولايات المتحدة الأمريكيّة بأعناق الحكومات العربيّة وشعوبها.

تمارس أمريكا من العراق الضغوط العسكريّة المباشرة على سوريا وإيران بالتهديد والوعيد بما تملكه من ترسانة عسكريّة رهيبه في العراق، وجيوش قريبة من حدود تينك الدولتين. أمّا إسرائيل فتقوم بالتهديد بضرب البنية التحتيّة لتينك الدولتين، إن حاولت الدولتان أو إحداهما دعم حزب الله في لبنان وحركات المقاومة في فلسطين. والهدف ممّا تقوم به أمريكا وإسرائيل ضدّ سوريا وإيران هو إخضاع هاتين الدولتين للنفوذ الأمريكيّ في المنطقة للقضاء على آخر داعم للمقاومة في المنطقة.

وبهذا التلازم بين أمريكا وإسرائيل وتبادل الأدوار بينهما تكون أمريكا قد حقّقت أهدافها في السيطرة المباشرة على منطقة الشرق الأوسط، لإقامة إمبراطوريّتها، بعد أن يتمّ لها القضاء على المقاومة في المنطقة، وإخضاع سوريا وإيران لنفوذها. وتكون إسرائيل قد حقّقت أهدافها بالحفاظ على كيانها الذي أقامته في جسد الأمة العربيّة، واستدامة وجود هذا الكيان، وإمكانية توسيع رقعته، إن سمحت الظروف بذلك.

4 - الدعامة الرابعة من الدعائم التي قام عليها الكيان الإسرائيليّ هو التعاطف العالميّ معها. فقد استطاع هذا الكيان أن يكسب تعاطف حكومات وشعوب العالم في أوروبا والأمريكيتين وكندا وأستراليا وبعض الحكومات والشعوب في قارّتي أفريقيا وآسيا. وقد نتج عن هذا التعاطف تأييد تلك الحكومات والشعوب للكيان الإسرائيليّ في جميع المواقف، ولكلّ ما يقوم به تجاه الفلسطينيين والعرب تحت شعار "حقّ إسرائيل في الدفاع عن النفس".

إنّ تلك الدعائم الأربع قد انهار بعضها، وأصاب بعضها الآخر ضرر كبير لا يمكن إصلاحه في القريب العاجل بسبب الحرب التي شنتها إسرائيل على حزب الله في لبنان، وضمود ذلك الحزب في تلك الحرب، ثم قلب المعادلة على إسرائيل، إذ استطاع المقاومون في حزب الله أن يُغشوا الأهداف التي أرادت إسرائيل تحقيقها من وراء هذه الحرب، وهي القضاء نهائياً على حزب الله، وعلى المقاومة الفلسطينية بعد نجاحها في تحقيق هذا الهدف واستطاع المقاومون أن يلحقوا بإسرائيل خسائر فادحة في المعدات العسكرية وفي الجنود، وفي بنيتها التحتية والاقتصادية. وقد عُدد هذا الضمود من قبل حزب الله، وقدرة مقاوميه على منع إسرائيل من تحقيق أهدافها في هذه الحرب، ثم إلحاقه خسائر فادحة بجنودها ومعدّاتها العسكرية وبنيتها التحتية والاقتصادية، عُدد ذلك نصراً كبيراً للحزب والمقاومة على إسرائيل.

إنّ بعض تلك الدعائم قد سقطت تماماً، وبعضها قد تصدّع وهو في طريقه إلى السقوط.

إنّ الدعامة الأولى قد تصدّعت، وأصابها ضرر كبير يصعب إصلاحه، فبعد أن تبين للولايات المتحدة وأوروبًا هشاشة عود إسرائيل، وبعد تحوّل جنودها الذين كانوا يوصفون بأنهم ليوث المنطقة إلى ثعالب مذعورة، وتحوّل دبّاتها (الميركافا) التي كانت تباهي بها في عدم قدرة أحد على الوقوف بوجهها، إلى خردة ملقاة على جانبي الطريق أو على التلال أو في الأجرح اللبنانية. بعد كلّ هذا الذي حصل لإسرائيل على أيدي مقاتلي حزب الله، بدأ الدعم الأمريكي والأوروبي بالانحسار عن الكيان الإسرائيلي. والمؤشّرات على ذلك كثيرة: منها موافقة أمريكا على تخفيف الشروط التي كانت تصرّ عليها إسرائيل في أيّ قرار يتّخذه مجلس الأمن لوقف العمليّات العسكريّة بين إسرائيل وحزب الله، ومنها موافقة أمريكا على عدم إدراج نزع سلاح حزب الله في القرار 1701 مع رغبة إسرائيل في أن يتضمّن القرار ذلك، ومنها موافقة أمريكا على صدور قرار يوقف العمليّات العسكريّة، وإن لم تتحقّق الأهداف الإسرائيليّة الأمريكيّة من وراء الحرب على حزب الله، ومنها تراجع الموقف الشعبيّ الأمريكيّ عن تأييده للعمليّات الحربيّة التي تقوم بها إسرائيل، وعن تأييده للسياسة الأمريكيّة الداعمة لإسرائيل، وقد عدّ بعض المحلّلين السياسيين هذا الأمر سبباً لسقوط أبرز مؤيّدَي إسرائيل في الحزب الديمقراطيّ الأمريكيّ، وهو السناتور جوزف ليبرمان في انتخابات الحزب. وقد أقرّ ليبرمان بهزيمته في هذه الانتخابات التي تهدف إلى اختيار مرشّح الحزب الديمقراطيّ لتمثيل ولاية كونيتيكت في مجلس الشيوخ الأمريكيّ.

ونشرت مجلّة "ذَ نَيْشِن" الأمريكيّة في 29 يوليو (أي أثناء الحرب التي شنتها إسرائيل على حزب الله) مقالاً للكاتب آري برّمان تحت عنوان "قبضة أيباك"، تحدّث فيه عن تدخّل "أيباك" في رسم سياسة الولايات المتّحدة الأمريكيّة في منطقة الشرق الأوسط، وأشار إلى أنّ تأثير "أيباك" على المسؤولين الأمريكيّين لا يقتصر على الضغط عليهم سياسياً، بل يتعدّى ذلك إلى كتابة القوانين والقرارات التي تدعم إسرائيل، ويمرّرونها في الكونجرس الأمريكيّ. ولكنّ الكاتب أكّد أنّ قبضة "أيباك" شرّعت تثير سخط ومقاومة عدد من أعضاء الكونجرس الذين يرون أنّ اتّخاذ مواقف متوازنة في المنطقة يخدم مصلحة الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

وأخيراً، جاءت الدراسة التي أعدها اثنان من الأكاديميين الأمريكيّين البارزين، وهما ستيفن والت وجون مارشيمير عن اللوبي الإسرائيليّ. وقد دعا هذان الباحثان المسؤولين في الحكومة الأمريكيّة إلى الكفّ عن دعم إسرائيل فيما تفعله في منطقة الشرق الأوسط حفاظاً على مصالح الولايات المتّحدة الأمريكيّة في المنطقة. أمّا الدعم الأوروبيّ فهو آخذ بالانحسار أيضاً، ويدلّ على ذلك تردّد حكومات الدول الأوروبيّة في إرسال قوّة للمشاركة في قوّة اليونيفيل التي يُراد منها الانتشار في جنوب لبنان لحماية الكيان الإسرائيليّ.

أمّا الدعاية الثانية فقد سقطت تماماً وانهارت بالكامل، ولا يمكن إعادة ترميمها في الوقت القريب. فقد انهار الرعب الذي كانت تمارسه إسرائيل على الحكومات العربيّة وشعوبها، وسقطت مع انهيار الرعب مقولة "جيش إسرائيل هو الجيش الذي لا يُقهر، ومقولة "لا قِبَلْ لنا بجيش إسرائيل". وبدأ صمت الخائف يتحوّل إلى همهمة، ثمّ إلى كلمات تأييد للمقاومة، وسيتحوّل في القريب العاجل إلى قعقعة سلاح.

أمّا الدعاية الثالثة فقد انهارت بالكامل أيضاً تبعاً لانهيار ما قبلها، فلا رعباً بقي لدى إسرائيل تخيف به العرب، ولا مقاومةً فُضِيْ عليها في المنطقة، ولا شرقاً أوسطاً جديداً تسيطر عليه أمريكا سيطرةً مباشرةً. أمّا سوريا وإيران فقد برزتا قويتين في المنطقة.

إنّ التلازم الأمريكيّ الإسرائيليّ في طريقه إلى التفكّك، فإن لم يتحقّق في زمن حكومة بوش الابن الحاليّة، فسيتحقّق في حكومة أمريكا القادمة التي تخلف هذه الحكومة، لأنّ التلازم كان تلازم مصالح، فإذا فشل أحد المتلازمين في تحقيق مصالح الآخر، فإنّ الثاني يسعى إلى فكّ هذا التلازم والارتباط.

أمّا الدعاية الرابعة فقد تصدّعت وأصابتها ضرر كبير، وهي آيلة إلى السقوط، لأنّ ما فعلته إسرائيل من جرائم حرب بحقّ المدنيّين في لبنان، التي كان منها جريمتها في قانا، وجرائم قتل الأطفال والنساء والعجزة،

وتدمير البيوت على أهلها المدنيين هو الذي دفع منظّمة العفو الدوليّة إلى إدانة ما فعلته إسرائيل، وإلى اعتبار ذلك جرائم حرب مشينة فعلتها إسرائيل في لبنان. إنّ هذه الجرائم قد كشفت النقاب عن وجه إسرائيل الحقيقيّ أمام شعوب العالم وقد بدا السوء ظاهرًا بوضوح على وجوه الإسرائيليين بسبب جرائم جيش إسرائيل في لبنان، وبدأ تعاطف شعوب العالم مع الكيان الإسرائيليّ ينحسر تدريجيًّا في أكثر مناطق العالم.

إنّ الحرب التي شنتها إسرائيل على حزب الله قد أسفرت عن انهيار الدعائم التي تقوم عليها، وكشفت هذه الحرب عورتها، وإنّ إسرائيل تمرّ الآن في مرحلة من الضعف لم تمرّ بها منذ تأسيسها عام 1948 ميلاديّ، وإنّ نتيجة هذه الحرب قد أضعف سعي أمريكا لتحقيق أهدافها، وإنّ إسرائيل والولايات المتّحدة تحاولان الآن وبسرعة أن يسترا عورة الكيان الإسرائيليّ، ويحاولان أن يعيدا لهذا الكيان قوّته ثانيةً وبسرعة، لتلافي تداعيات الضعف الإسرائيليّ في المنطقة.

وعلى الحكومات العربيّة أن تستفيد من هذه المرحلة. وإنّ أمامهم الآن فرصة ذهبيةً قد لا تتكرّر ثانيةً لتحقيق الأمور التالية:

1. إقامة دولة فلسطينيّة قويّة، وإجبار إسرائيل على الانسحاب من القدس ومن جميع الأرض الفلسطينيّة التي احتلتها عام 1967 ميلاديّ، مع الإصرار على تمتّع تلك الدولة بمقوّمات الدول التي تستطيع أن تحمي حدودها.
2. انسحاب إسرائيل من الجولان وإعادة كامل الأرض السوريّة المحتلّة من قبل إسرائيل.
3. الانسحاب من كامل الأرض اللبنانيّة المحتلّة بما في ذلك مزارع شبعا.
4. إطلاق سراح كلّ الأسرى والمسجونين الفلسطينيّين واللبنانيّين والعرب.
5. تفويت الفرصة على أمريكا لما تسعى إليه من إقامة شرق أوسط جديد خاضع مباشرةً لها، وذلك بدعم المقاومة في لبنان والعراق، ورفع صوت التحدّي في وجهها دون خوف.
6. إجبار أمريكا على إنهاء احتلالها للعراق، وسحب جيوشها من العراق ومن المنطقة.